الفكر التاريخي وتطوره عند الأوروبيين

أ.م.د. دارا توفيق كاكة أمين
كلية العلوم الإنسانية – جامعة رابة رين

الكلمات المفتاحية: التاريخ. الفكر. الأوروبيين

الملخص:

إن تاريخ المعرفة الإنسانية هو تاريخ الجهد الذي يبذله البشر من أجل إدراك وعي خبراتهم الناتجة من علاقتهم بالطبيعة وببعضهم البعض، من أجل تطوير حياتهم تطويراً بهذا المعنى. وتصبح المعرفة نتاجاً تطورياً لمعطيات الحضارات الإنسانية جميعها، أن المعرفة التاريخية لم تكن وقفاً على أمة، أو مجموعة من الأمم، دون سائر البشر، وأن الفكر التاريخي كان رفيقاً ملازماً للإنسان في كل زمان ومكان.

إن هذا الموضوع مهم جدا، لان البحث في مثل هذه المواضيع تفيد الباحث لمعرفة تطور الفكر التاريخي لدى الإنسان واساليبه المنهجية خلال العصور المتعاقبة، فضلا اخذ الحكمة والموعظة من الماضي، ولا ننسى تسخير التاريخ للأهداف المرجوة منها.

كان الواجب ان اكتب بحثاً شاملاً ومنهجياً عن الفكر التاريخي، عن نشوئه ومراحل تطوره، عن دوره في تقدم أوروبا الفكري والاجتماعي والسياسي، عن علاقته بعلوم الاجتماع وبالواقعية في الفلسفة والنسبية في الاخلاق وبالبطولة الخلافة في الفن والأدب.

تتألف هذه الدراسة خصص لفكر التاريخي وتطوره عند الأوروبيين ،من المقدمة وأربعة مباحث والخاتمة، واعتمدت على الكتب العربية والانجليزية والبحوث العربية، وخلاصة الدراسة التي كتبت باللغتين العربية والإنجليزية.

المقدمة

إن تاريخ المعرفة الإنسانية هو تاريخ الجهد الذي يبذله البشر من أجل إدراك وعي خبراتهم الناتجة من علاقتهم بالطبيعة وببعضهم البعض، من أجل تطوير

حياتهم تطويراً بهذا المعنى تصبح المعرفة نتاجاً تطورياً لمعطيات الحضارات الإنسانية جميعها، إذ لايمكن لحضارة من الحضارات أن تحتكر لوحدها انجازات المعرفة. لذلك، أن المعرفة التاريخية لم تكن وقفاً على أمة، أو مجموعة من الأمم، دون سائر البشر، وأن الفكر التاريخي كان رفيقاً ملازماً للإنسان في كل مكان وفي كل زمان.

الهدف من الدراسة: إن هذا الموضوع مهم جدا،وذلك لمعرفة تطور الفكر التاريخى لدى الإنسان واساليبه المنهجية خلال العصور المتعاقبة، فضلا اخذ الحكمة والموعظة من الماضى، ولاننسى تسخير التاريخ للا هداف المرجوة منها.

لذا كان من المهم الكتابة عن الفكر التاريخى، عن نشوئه ومراحل تطوره، عن دورة فى تقدم اوروبا الفكرى والاجتماعى والسياسى، عن علاقته بعلوم الاجتماع وبالواقعيه فى الفلسفة والنسبية فى الاخلاق وبالبطولة الخلافة فى الفن والادب، ثم عن علاقة التاريخانية عموماً والماركسة عند ماركس اولاً ثم اثناء الاممية الثانية حيث اختفت التاريخانية تحت تاثير الكانتية الجديدة.

منهج الدراسة: حاولنا في هذه الدراسة عدم الاعتماد على منهج واحد، للوصول إلى هدف الدراسة، ذلك لأنه يمكن العمل حسب مناهج مختلفة في شتى المواضيع والبحوث، حسب فحواها ونوع المشكلة وأهدافها، وقد استعنا بتلك المناهج، بغية الوصول إلى الحلول والنتائج المرجوة، لذلك، أفدنا من المناهج الوصفية والتحليلية والنقدية والتاريخية.

هيكلية الدراسة: تتألف هذه الدراسة من المقدمة وأربعة مباحث والخاتمة، تناول المبحث الأول، مفهوم التاريخ، وتضمن المبحث الثاني، فائدة التاريخ وأهدافه، والمبحث الثالث تتناول هل التاريخ علم من العلوم أم فن من الفنون؟ والمبحث الأخير، خصص لنشأة الفكر التاريخي وتطورها، في نهاية الدراسة، تم تطرق إلى تلك النتائج التي وصل الدراسة أو البحث إليها، مع بيان قائمة المصادر، واعتمدت على الكتب العربية والانجليزية والبحوث العربية، وخلاصة الدراسة التي كتبت باللغتين العربية والإنجليزية.

صعوبات الدراسة:من الطبيعي أن تتعرض أية دراسة أكاديمية إلى صعوبات ومشكلات عديدة في طريقها، لاسيما في الدراسة عن الفكر التاريخي، وأبرز تلك الصعوبات تفتقر المكتبات والمؤسسات المختصة بهذا الجانب اليها كثيراً.

المبحث الأول: التاريخ لغة واصطلاحا

يبدو منطقيا أن نحاول التعرف على المعنى اللغوي لكلمة تاريخ، وذلك لأن هذه الكلمة تثير مشكلات حول معناها اللغوي ومدلولها في اللغة العربية، كما أن نظائرها في اللغات الأوربية تثير مشكلات متشابهة ولأن الكلمة تحمل عدة معان، متباينة أحيانا ومتقاربة أحيانا أخرى، وسنحاول من خلال هذا البحث أن نتناول بعض التعاريف اللغوية والاصطلاحية.

ويرى بعض الباحثين المتخصصين أن كلمة تاريخ لفظ عربى قديم، وأنها لفظ مشترك في اللغات السامية، تلوح القرابة بينه وبين كلمة (ياريح) العبرية ومعناها القمر وكلمة (يرح) التي تعنى الشهر، ومن ثم فإن الاستخدام الأول للكلمة بدأ للدلالة على الشهر، وهو أمر نراه منطقيا في ضوء الحقيقة القائلة بأن العرب،مثل العبراني استخدموا التقويم القمرى الذى ماتزال تعتمد عليه في التقويم الهجرى حتى اليوم، كما أن اللغة العربية واللغة اليهودية تنتميان إلى عائلة لغوية واحدة مما يرجع أن تكون الكلمة عربية أصلا.(قاسم، 2000، ص17)

وتبدو العلاقة بين العبارة الفارسية والكلمة العربية واهية بالقدر الذى لايسمح لنا بأن توافق على أن الكلمة مأخوذة عن الفارسية، وربما يكون هذا الرأى قد خلط بين الاشتقاق اللغوى.(قاسم، 2000، ص16-17) ولكن (جب H.Gibb) يرى أن لفظ تاريخ، انما هو لفظ عربى بمعنى العهد أو الحساب أو التوقيت، أى تحديد الوقت وتحديد الشهر.(مهران ، 1992، ص4)

وكلمة تاريخ في اللغة العربية تعنى عدة أشياء، وأوضح السخاوى هذا التعدد في معانى الكلمة في كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، إذ يقول " التاريخ في اللغة هو الاعلام بالوقت، يقال أرخت الكتاب وورختة: أى بينت وقت كتابته. قال الجوهرى: التاريخ تعريف الوقت والتوريخ مثلة، يقال: أرخت وورخت وقيل اشتقاقه من الأرخ، بفتح الهمزة وكسرها.(قاسم، 2000، ص15)

وتناول المؤرخون المسلمون تعريفات التاريخ مثلاً نرى ان (أبو الفرج قداحة بن جعفر) في كتاب الخراج يقول: تاريخ كل شىء أخر فيؤرخون بالوقت الذى وقعت فيه حوادث مشهورة بينما يقول الصولى تاريخ كل شىء غايته ووقته الذى ينتهى اليه زمنه.(النبراوى،1996، ص33).

وتـأريخ مصـدر مـن (أرخ) بلغـة قـيص، وهـو اللفـظ الشـائع عنـد العـرب، أو (ورخ) بلغـة تمـيم، وهـو لفـظ لـم يسـتخدمه كاتـب قـط، ويـزعم الـبعض أن لفـظ تـأريخ مـن اللفـظ الأكـدى (أرخـو) ولكـن هـو أخـر بعيـد الاحتمـال في رأى روزنتـال، بـل يـذهب هـذا المؤرخ الى أن لفظة تاريخ تعنى الزمن والحقبة.(يزبك، 1990، ص10)

كمـا اشـار الـبعض الى ان كلمـة التـاريخ تعنى مجموعـة الحـوادث التي ظهـرت وسـوف تظهـر في حيـاة البشـرية كمـا أنهـا تعنى الإلمـام بتلـك الاحـداث، ويـرى شـوتول (shotwell): ان كلمـة التـاريخ بمعناهـا الحـديث تشـمل جميـع مظـاهر الحيـاة البشـرية، فضـلا عـن ذلك مظاهر الحياة الطبيعية. (shotwell، ص504)

وأن الكلمـــة (اســـتوريا Historia) يونانيـــة الأصـــل التـــي اســـتخدمها (هيـــرودودت) عنوانـا لكتبـه التسـعة، تـدل جـذورها علـى معنـى الرؤيـة، فعنـدما نشـطت الحركـة الفكريـة والسياسـية نشـاطاً عظيمـاً في الـدويلات الأيونيـة، حيـث أن كلمـة أسـتور (Hiustors) تعنـى الرؤيـة والمشـاهدة أو الاستقصـاء بقصـد المعرفـة والاستفسـار مـن أجـل الفهـم.(الشـيخ، 2000، ص7: روزنتـال، 1963، ص16-17) فأصـل هـذا التعبيـر أخـذه الرومـان تلـك الكلمـة بمعناهـا ومبناهـا، (الحـويرى ، 2001، ص11) ويضـيف المؤرخ الفرنسى جاك لوغوف (J.Le. Goff) إن الجذر الإغريقى لكلمة (Histoire) هـو (Istor)، ويعنـي (الشـاهد) بمعنـى البصـير أو المبصـر، وهـذا المفهـوم للبصـر، كمصـدر أساسـي للمعرفـة، يقـود إلى فكـرة أن ((Istor)) (المبصـر) هـو الـذى يعـرف ب (Istorein) وهـو أيضـا الباحـث عـن معرفـة istorie. هي إذن تحقيـق (enquete)، وهـذا هـو معنى الكلمـة كمـا هي لـدى هيرودت مـن (تواريخـه (التي هى أبحـاث وتحقيقـات . ويضـيف لوغـوف : في اللغـات اللاتينيـة (الرومانيـة) ثمـة ثلاثـة أوجـه لمعنىHistoire أولاً، معنـى التحقيـق والبحـث في الأعمـال التـي ينجزهـا البشـر، وهـو المعنـى الـذى سـيتطور ليـؤدى معنى (علـم التـاريخ)، وثانيـاً، معنى غـرض البحـث وهـو مـا قـام بـه البشـر. ووفقـاً لـذلك يكـون التـاريخ متابعـة لأحـداث، أو سـرد هـذه المتابعـة للأحـداث (Recit).أمـا الوجـه الثالـث فالتـاريخ (Historie) قـد يكـون السـرد نفسـه. (Goff، 1988، ص179ـ 180) وظلـت كلمـة (Istoria) تعبيـرا فنيـا لـم تتبـدل حروفـة بانتقالـه الى اللغـات الأوربيـة كمـا كـان يحـدث لـو كانـت لهـذه الكلمـة منتشـرة عنـد العامـة ، ومـن

كلمة (Historia) اشتقت الكلمات الاوربية الحديثة مثل كلمة (History) الانجليزية (Historia) وكلمة (Histore) الفرنسية. (الحويرى، 2001،ص 11)

اجتهد المؤرخون القدامى والمحدثون في تعريف التاريخ، وقدموا أراءهم مدعمة بوجهات نظرهم، كل يحاول أن يدلى بدلوه في هذا المجال، والتاريخ دون شك هو حياة الشعوب، وتاريخ تفاعل الإنسان مع بيئته، وتاريخ ناطق بالأحداث التي عاشها الإنسان منذ أن بدأ حياته على الأرض، وإذا كان التاريخ كلمه فهو يعنى البداية لأن بداية كل شيء عقلي كانت الكلمة، وبالكلمة المسجلة المدونة بدأ تاريخ الإنسان (النبراوى، 1996، ص21).

من ناحية أخرى، التاريخ دراسة للتطور البشرى في جميع جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية، وهذا يعنى أن التاريخ هو المرآة أو السجل أو الكتاب الشامل الذى يقدم لنا ألوانا من الاحداث وفنونا من الافكار وصنوفا من الأعمال والآثار، ويعنى دراسة الاحداث أو هو الاحداث نفسها، وسواء كانت الاحداث صغيرة أو كبيرة، محسوسة أو غير محسوسة، ويعلمنا التاريخ أن لكل زمان ومكان ظروفه وأفكاره وقيمه وأساليبه في التفكير والعمل وأن الجنس البشرى في تطوره عبر العصور التاريخية قد أدخل تعديلات جوهرية على أساليبه ووسائله في مواجهة المشكلات، ودراسة التاريخ توقفنا على جذور المشكلات الحاضرة وتزيد من فهمنا لها (الشيخ، 2000، ص8-9).

على أن جمهرة المؤرخين تذهب الى أن معنى التاريخ انما يقتصر على بحث واستقصاء حوادث الماضي، غير أن الماضي إنما هو وعاء لكل مظاهر الكون، بمختلف أشكالها وأنواعها يتسع للجيولوجيا، ولعل تطور الحياة ونشوئها وارتقائها، ولكل صنف من أصناف الكائنات، وعلاوة على ذلك فان التاريخ هو المصدر الاساسي للمعرفة الانسانية،(مهران، 1992، ص6) نستطيع ان القول أن التاريخ هو المنبر الشرعى للمعرفة بكل انواعها.

أما من ناحية الضبط الاصطلاحي، فهناك العديد من التعاريف الاصطلاحية التي حاولت أن تضبط مفهوم التاريخ فإن المتصفح للكتب والمقالات المهتمة بابستيمولوجية التاريخ كعلم، سوف نجد كما هائلا من هذه التعاريف المتعددة، مختلفة ومتناقضة حينا، ومتكاملة حينا أخر ونجد من بينها:

يعرفه (أرستو) على أنه:" جمع الوثائق " ويعرفه (بيكون): "العلم بالأمور الجزئية التي تكون الذاكرة وسيسلتها". ويعرفه (هيجل): " هو مجموع الدراسات الخاصة بالفكر باعتباره مناقض للبيعة".. مما يجعل التاريخ " ليس هو الماضي والحضر فحسب بل إنه أيضا مستقبل الإنسانية الحرة" ولهذا كما سنرى نجده يربط مفهوم العقل الحر بمفهوم التاريخ إذ تاريخ الإنسان عنده هو تاريخ التقدم البشري كما أنه يمثل مراحل نمو العقل الحر للإنسان عبر الزمان.(غالى، 2016،ص 145)

ويعرفه (كولنجوود- Collingwood):" التاريخ هو نشاط عقلي يقوم به المؤرخ، فهو ماض يحييه المؤرخ ويستحضره " أو هو:" التاريخ علم يكشف عن جهود الإنسان، أو الأعمال التي قام بها في الماضي". كما يعرفه الفيلسوف الإيطالى (كروتشه- Croce):" التاريخ بأجمعه هو تاريخ معاصر، بمعنى أن التاريخ يتألف بصورة أساسية من رؤية الماضي من خلال عيون الحاضرو على ضوء مشاكله".(كولنجود، 1968،ص 338-339)

ومن جهة أخرى فان (ريمون أرون Aron Raymond) هو الأخر يعطينا تعريفا للتاريخ:" التاريخ هو سرد أو هو قصة الأموت يحكيها الأحياء". وكذلك نجد (فرناند بروديل Braudel Fernand) يعرف التاريخ :" إن التاريخ هو الإنسان... والباقى كل شيء تاريخ... الأرض والمناخ... التاريخ علم للإنسان في الزمان عبر المكان..." وهنا نشير إلى أن هذا تأكيد على جيو- تاريخ Geo histore.(غالى، 2016،ص 146)

وهكذا نجد أنفسنا أمام كم هائل من التعاريف المختلفة التي تحملنا على صعوبة تبني تعريف معين لأنه قد نأخذ بأحد التعاريف دون تردد وهكذا من الأفضل أن نأخذ بإجابة (هنرى مارو marro Henry) عندما طرح عليه السؤال: ما التاريخ؟ أجاب: أقترح أن هو معرفة الماضي البشرى كما فعل " ريمون أرون".

المبحث الثاني: فائدة التاريخ من منظور الاوروبيين

ولابد لنا أن نبدأ ببحث قضية هامة وأساسية، وهى ما هو الهدف الحقيقي والفائدة المباشرة للتاريخ، وهناك أراء كثيرة في فائدة التاريخ، فيقول البعض بأنها دراسة ممتعة ومفيدة، لأنها توسع ادراكنا، وتنمى مواهبنا الفكرية في جوانب كثيرة، وفائدة التاريخ الرئيسية هى أن يظهر نتائج النشاطات الاجتماعية وردات الفعل والاصداء المتعددة التي تلى تلك النشاطات، بالاضافة إلى تأثير البيئة على الافراد،

وتأثر القوى الفردية على المجموعة بكاملها، فالبرغم من معرفة الأحداث المفردة قبل وقوعها لايعدو كونه (وهما): أما مايمكن تحديده فهو الميول الطبيعية للتطور الاجتماعى والاتجاهات العامة التي تتبعها المجتمعات الانسانية في وضعها الطبيعى وفق الظروف المحيطة بها.(يزبك، 1990،ص 72)

والاكثر فائدة هو أن التاريخ يعنى أيضا محاولة الانسان لوصف الماضى وتفسيرة وهو كما قال (باراكلاف):((المحاولة التي تبذل لكشف عن الاشياء المهمة في الماضى على أساس من شواهد جزئية ماضية))،(مؤنس ، 1984،ص 34ـ 35) هذا نقطة مهمة بالنسبة لرجال السياسة،اكثر من ضرورى المباشرة أعمالهم بمهارة وجدية،فان جهل ذوى المناصب الكبرى في المجال السياسى بالتاريخ ومثالنا على ذلك بريطانيا التي دفعت ثمنا باهظا لجهل قادتها قبل حرب العالمية الاولى بحقائق التاريخى الاوربى ومتجهاتة.(مهران، 1992،ص 12)

وهكذا يصل الى القول بأن:((أحسن ثقافة من أجل الحياة الحقيقية هى معرفة الأشياء والعبر التي قدمها لنا التاريخ الفعلى التي تتيح للاءنسان دون أن تعرضة للأخطار معرفة ،الطريق الأفضل والسلوك الآحسن في كل الضروف والمناسبات)). (الحويرى، 2001، ص20)

ومن الواضح أن للتاريخ عرضا اخلاقيا، فيقول المؤرخ الانجليزى (تريفليان) إن التاريخ يساعد المواطن على نبذ التعصب والتحيز، ويشحذ نشاطه ويدرب عقله على اتخاذ نظره متوازنة ازاء المسائل السياسية، والتاريخ أساس تعليم الشعوب، وينبوع ثقافتها، وبه تتذوق تراثها الأدبى، وتندمج مع المثل العليا،(الحويرى، 2001، ص27) يعنى أن دراسة علم التاريخ تفيد في أنها تسد حاجة غريزية انسانية أساسية كفي بحاجة أصلية من حاجات البشر الذين يعيشون في المجتمع، وضرورة التاريخ تقوم على أنه يقوم للانسان والجماعة البشرية بوظيفة فعلية، بمعنى أنه يسد حاجة المجتمع إلى معرفة نفسه ورغبة في أن يفهم علاقته بالماضى وعلاقته بالمجتمعات الأخرى وثقافتها.(الشيخ، 2000، ص14)

المبحث الثالث/ هل التاريخ علم من العلوم أم فن من الفنون

بعد أن استعرضنا معنى التاريخ أن لنا نتساءل هل التاريخ علم ام فن؟ للاجابة على هذا التساؤل نذكر أنه حدث اختلاف حول التاريخ وهل هو علم أم فن أم أدب

في آواخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، قام جدل شديد بين رجالات العلم والتاريخ والآدب في وصف التاريخ بصفة العلم ونفيها عنه، ومن ثم فقد انقسم العلماء الى فريقين: ذهب الفريق الاول، ومنهم (وليان جيفونز) أن التاريخ لايمكن أن يكون علما، وفريق الثانى منهم (لويس جوتشكك) يرى من المؤكد أن التاريخ علم من العلوم.(مهران ، 1992، ص15،18)

وأما المؤرخون الذين ينفون صفة العلمية عن التاريخ[1]، فيرون أن علوم الطبيعة وحدها خاضعة للتفسير والتعليل، لأنها تقوم على الملاحظة والتجربة والاستقراء والمقارنة بخلاف العلوم الإنسانية والتي من ضمنها التاريخ لأنها لاتخضع إلا للفهم والتأمل، ويقصد هنا بالتفسير النهج التحليلي الذي يقوم على إبراز العلاقات السببية بين الظواهر، في حين أن الفهم نهج تركيبى يرتكز على معرفة الغير وتأويل النوايا البشرية عبر استعمال التفكير التاريخي.(طحطح،2009، ص24) لأن، أن بلغ الفكر التاريخى مرحلة من التطور يمكن أن تقارن بالمرحلة التي بلغتها العلوم الطبيعية في أوائل القرن السابع عشر، ولكن هذا التطور لم يبتدىء بعد، لكى يحدث الأثر المطلوب في هؤلاء الفلاسفة الذين يؤلفون كتباً عن المنطق.(كولنجوود، 1968،ص 439)

وقد أسهم العلماء المسلمون في ذلك إسهامات عظيمة عرضوا فيها لآرائهم حول التاريخ الذى لم يكن من العلوم العقلية، ولامن العلوم النقلية بل يأخذ مركز الوسيطة بينهما،(النبراوى،1996، ص29) ولكن علماء الطبيعات الأوربيون ينكرون تسمية التاريخ بلفظة علم تأسيسا على أن الأحداث التاريخية لاتخضع للملاحظة والتجربة، كما أن كل حادثة تاريخية، إلا أنها تعتبر قائمة بذاتها لايمكن أن تتكرر، هذا إلى جانب أن الدراسة التاريخية لاتوصل إلى تعميمات أو قوانين علمية، بالاضافة إلى أنه لايمكن التنبؤ بمسار التاريخ في المستقبل.(الشيخ، 2000، ص11) (ينظر: بوبر، 1959)

وإذا كنا لا نستطيع أن نعد التاريخ من العلوم التجريبية فليس في إمكاننا أن ننفي عنه صفة العلم، وفي هذا السياق يرى (هرتشو) أنه علم نقد وتحقيق، وبالتالى فهو ليس علم تجربة واختيار وهنا يعقد مقارنة بين علم التاريخ وعلم الجيولوجيا، فكلاهما يدرس الانسان على الارض ويتفاعل مع المخلفات البشرية

كأدلة وأسانيد لما يصل اليه من استنتاجات، (النبراوى، 1996،ص 31) ولكن المؤرخ الشهير الانجليزى (بيورى J.B.Bury) وقد أعاد هذه القضية إلى الاذهان حين أعلن في إحدى محاضراته بأنه التاريخ علم لا أكثر ولا أقل.(الناصرى،1982،ص 7)

ومع ذلك يمكن القول أن التاريخ علم من العلوم الانسانية حيث يدرس التطور البشرى في جميع النواحى، ولذلك لا يمكن أن نشبهه بالعلوم الطبيعية التي تدرس ظاهرة واحدة بيولوجية أو فيزيائية أو رياضية... الخ، والواقع أن هذا الاعتقاد هو الذي أثار موجة من الاعتراضات على إسناد صفة العلم إلى البحث التاريخي. وذلك انطلاقاً من استحالة إخضاع وقائع الماضى التي لا نملك إلا جزئيات قليلة من أثارها للاختبار والتجربة والمعاينة. (كوثرانى، 2012، 391) وبينما يدرس التاريخ كل النشاط الانساني المعاصر ويربطه بجذوره في الماضى.(الشيخ، 2000،ص 11) ولأن العلوم الاجتماعية لا نستطيع تناول الظواهر إلا في الزمان ولذلك تحتاج إلى التاريخ، كما يحتاج علم التاريخ نفسه إليها.بهذين السببين فإن الفواصل بين علم التاريخ والعلوم الإنسانية الأخرى تبدو نسبية وسهلة التجاوز. (فابر،1982، ص21)

إلا أن موضوع علم التاريخ كما هو معروف لنا جميعا عبارة عن احداث منفردة نهتم بأسبابها وبتفسيرها وبنتائجها، وهي بهذا تناقض العلوم الطبيعية والبيولوجية، فهي علوم تعميمية لا تهتم بأية احداث مفردة، بل بالقوانين العامة الكلية التي تحكمها. والتاريخ يمثل هذه العلوم في أنه يفترض ضمنا قانونا عاما، ولكن يختلف عنها في أنه يحاول أن يفسر في ضوئه الحدث المنفرد المطروح للدراسة.(الخولى، 2003،467)(صديق، 2012،ص 8)

ويرى البعض أنه من الصعب جدا أن يعد التاريخ علما، خصوصا اذا لاحظنا أن التاريخ لا يخلق لنا نفسه، وإنما يخلق لنا تعبيرات وأوصافا للأحوال التي جرت فيه، والأوصاف كلها تتوقف على أمور نفسية أو ذاتية هى الاحوال الذاتية الخاصة بمؤلف الوثيقة ماعدا أحوالا قليلة هى أحوال الأشياء الدالة على أثار مثل الاثار الكثيرة أو اللوحات في دلالتها على ما أنتجه الفنان، وقد سار في هذا الاتجاه المؤرخ البريطانى (جورج ماكولى تريفليان 1876- 1962) الذى أصدر مقالة رائعة عن طبيعة علم الطبيعة، ولكنه علم في حدود معينة هى الدقة في جمع المادة والدقة كذلك في الموازنة بين الادلة، والمؤرخ الذى يستطيع أن يفعل ذلك يستلفت اهتمام

العقـول بكلامـه، ويثيـر إحـدى العواطـف الانسـانية، ويفـتح البـاب أمـام قـوى التخيـل والتصـور. (الحـويرى،2001 ،ص16،13) (للمزيـد مـن المعلومـات حـول هـل تـاريخ علـم من العلوم من وجهة نظر كارل بوبر ينظر: صديق،2012،. ص1-8)

وقـد أثـار الـذين ينـادون بـان التـاريخ لـيس كـلا الامرين،حيـث يـرى الـبعض أن المـؤرخ لا يلاحـظ الظـواهر التي يدرسـها بطريقـة مباشـرة، وانمـا عـن طريـق السـمع والنقـل عـن الاخـرين، والـبعض الاخـر يـرى: فلـيس مـن حقنـا أن نطلـق على أى بحـث نظـري اسـم البحـث العلمى، الا اذا أمكـن اسـتخدامه في التنبـؤ بالمسـتقبل، وبمعنى أخـر، الا اذا مكننـا مـن الكشـف عـن بعـض العلاقـات أو القـوانين العامـة التي يمكـن تطبيقها على الظواهر.(مهران، 1992، ص20)

ويمكـن بنـاءً على هـذه الملاحظـات أن نخلـص إلى القـول إن ((علميـة)) التـاريخ لا تفتـرض تمـاثلا كـاملاً في المـنهج والتعمـيم مـع العلـوم الطبيعيـة كي يبـرز إسـناد صـفة العلـم إلى البحـث التـاريخى. فالتـاريخ لـيس علـم تجربـة واختبـار ومعاينـة، كمـا هي حقيقـة العلـوم الطبيعيـة. إنـه وكمـا يقـول معظـم المـؤرخين المعاصـرين علـم نقـد وتحقيـق، لايهـدف اكتشـاف قـوانين ثابتـة، وإنمـا تـرجيح احتمـالات في عمليـة السـعى للاقتـراب مـن الحقيقـة التاريخيـة. وإنـه إذا كـان لابـد مـن إجـراء مقارنـة بـين التـاريخ وبـين منـاهج العلوم الطبيعية كان علم الجيولوجيا هو الأقرب إلى إجراء هذه المقارنة.

المبحث الرابع/ الفكر التاريخي وتطوره عند الاوروبيين

كـان لتطـورات مراحـل الفكـر التـاريخي على مـدار رحلـة الإنسـان في الحيـاة، أن تطـورت نظرياتـه وفلسـفاته حـول رؤيتـه للتـاريخ تبعـاً لمـدى المقـدرة على الاسـتفادة مـن هـذه المرحلـة التاريخيـة أو تلـك، واذا كانـت رؤيـة الإنسـان للتـاريخ قديمـة قدمـه على الأرض، فـإن هـذه الرؤيـة قـد تطـورت وقننـت ثـم تحولـت إلـى العديـد مـن الـرؤى والنظريـات والفلسـفات مـع مطلـع العصـور الحديثـة، ثـم تطـور الأمـر بـأن نحـت العديـد مـن هـذه الـرؤى والنظريـات والفلسـفات منحـى أيـديولوجياً عقائـدياً لـدى الـبعض متسقة مع الزمن الذي ظهرت فيه، والمصالح التي تسعى وراءها.

عـادة يـرتبط التـأريخ للإنسـانية ببدايـة العثـور على كتابـات أو نقـوش تـدل على تواجـد الإنسـان، وتحـاول فـك طلاسـم أفكـاره ومعتقداتـه ومراكـز انتشـار صـناعاته، وطـرق هجراتـه، وغيـر ذلـك مـن شـتى نـواحي حياتـه، غيـر أن تـاريخ الإنسـان على الأرض

يتراوح بين ثلاثين وخمسين ألف سنة قبل الميلاد، ظل فيها المجتمع الإنساني مجتمعاً شفهياً، ولم يتحول إلى مجتمع كتابي إلا في فترة الستة آلاف سنة الأخيرة قبل الميلاد، التي هي تاريخ أقدم وثيقة مكتوبة له.(أونج، 1994، ص38) ويمكن ان نسمي هذه الفترة من التاريخ الانساني بمرحلة "التاريخ قبل الكتابي "، اي الفترة السفاهية للتاريخ الانساني.

ويرى البعض أن الكتابة التاريخية تبدأ في الأزمان السحيقة ضمن الفترة التي ندرجها اليوم في إطار التاريخ القديم بشقيه عصور ما قبل الكتابة والتدوين، وعصور كتابية تدوينية، وأن هذه الكتابة انتقلت ما بين الرسومات على جدران الكهوف، والنقوشات على الأحجار، (الفياض، 1972،ص20- 21) وسرد الملاحم والأساطير عند اليونانيين القدامى، وما ارتبط بها من حوليات حول الأحداث الحربية في عهد الرومان والمراحل الأولى من المسيحية، وإن كان لكل مرحلة زمنية سمتها الخاصة في الكتابة التي تميزها عن الفترة الأخرى،(سليمان، 2000، ص81-90) إلا أنه لا يمكن اعتبار هذه الفترات الزمنية مرحلة للتأريخ أو لتتبع مراحل الكتابة التاريخية، لسبب بسيط وهو أن المادة التي يمكن أن نستقي منها المعلومات التاريخية غير مكتملة، وتخضع في المقام الأول لما يكتشف كل يوم من آثار بأشكالها المختلفة، أي أنها مرتبطة بالتخمينات وليس المنهج العلمي في التفسير التاريخي.

وعلى الرغم من معاصرة التاريخ الأوروبي الوسيط للحضارة العربية والإسلامية، إلا أن الوضع بالنسبة للتاريخ وتفسيره، كما هو الحال في الحياة الفكرية، كان مختلفاً إلى حد التناقض بسبب اختلاف المناخ الثقافي، ففي أوربا سيطرت الكنيسة على الفكر، واعتبرت أنه لا معرفة إلا المعرفة بالكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة، وبذلك لم يكن هناك كتابات تاريخية في أوروبا العصور الوسطى.(بدر،2001، ص12) ومن مميزات الحياة الفكرية في هذا القرن ان الترجمة عن كتب اليونان والفرس وغيرهم وتطور العلوم العقلية في المنطق والفلسفة وعلم الكلام القت بجرانها في حلقات العلم والدروس ومن البديهي للفكر التاريخي انذاك ان يسلك مسلكا اكثر علمية وتطورا من الاول وادق منهجية في تدوينه. (نور، 2016،ص 535)

ان التاريخ الذي هو من نتاج العقلية الانسانية ، قد يسر منهجه بصفة خاصة تجعله موضوعا للمعرفة الانسانية. وهنا ينظر فيكو الى العملية التاريخية بوصفها

عملية تمكن الانسان من ابتكار النظريات الخاصة باللغة والعادات والقانون والحكومة، اي انه ينظر الى التاريخ بوصفه تاريخ نشاة وتطور الجماعات الانسانية وانظمتها، وهنا- للمرة الاولى- تتبلور فكرة التاريخ في الحدود الدقيقة المرسومة له في العصر الحديث.(حسين،2012، ص132)

حكم فكر تاريخي في أوروبا في الفترة النهضة حتى القرن الثامن عشر المنعتقة من أسر فكر الكنيسة وانهماكها في تشكيل فكر جديد بديل، قد لا يعنيه التماثل والاتفاق بقدر ما تهمه الحقيقة ومصلحة الإنسان كفرد وكمجتمع. وضمن هذه الحركة العامة شهد التاريخ انعطافا مهما، فلم يعد الكتاب المقدس وتوجهات الكنيسة ونظرتها لماضي مرجعية البحث عن طبيعة التاريخ وفائدته وقيمة المعرفة التاريخية ومدى فائدتها وإطار التاريخ الزمانى والمكاني والقوى المحركة له.

ويرى كولنجوود، إن الفكر التاريخية معرفة تحيط بما فعله العقل في الماضى، ثم هى في نفس الوقت عود بهذه الأفعال إلى الحاضر، بل استمرار لأحداث الماضى في نسيج الحياة الحاضرة، لذلك لن يكون موضوع الفكر التاريخية مجرد موضوع أو شيئاً خارجياً بمعزل عن العقل الذى يعرفه، وإنما هو نشاط للفكر لاسبيل إلى معرفته إلا عندما يتمثله العقل الخليق بالمعرفة في نفسه، ويكون على بينة من نشاط هذا. ونجد بالنسبة للمؤرخ أن ألوان النشاط التي يعرض هو لدراستها، ليست من قبيل المشاهد التي ينظر إليها، ولكنها ألوان من التجارب تعيد سيرتها في عقيلته، فهى إذن تجارب موضوعية، أو معروفة له لأنها ذاتية في نفس الوقت، أو من ألوان النشاط التي يمارسها هو نفسه .(كولنجوود، 1968، ص381)

في الوقت الذي كانت فيه الكتابة التاريخية عند المسلمين تتصارع مع الأحداث الداخلية في مجتمعاتهم، كانت النهضة الأوروبية قد بدأت في الازدهار، واستطاع الأوروبيون الاستفادة من أفكار المسلمين في شتى الميادين، وكانت الكتابة التاريخية على موعد مع التجديد ضمن التغيرات التي تحدث في أوروبا، فمع انتشار الأفكار المضادة لسلطة الكنيسة إبان عصر النهضة انتشرت معها عدة حركات جديدة في التفكير التاريخي، فظهرت ما عرف بالحركة الإنسانية في إيطاليا، ومنها انتشرت إلى المناطق المجاورة، ويعد فرانسسكو بترراكFrancescoPetrarch (1304 – 1374) الأب الروحي لهذه الحركة، التي اهتمت في المقام الأول بإعادة النظر في التراث

اللاتيني القديم بعيداً عن رؤية الكنيسة التي كانت تعتبر هذا التراث من بقايا الوثنية، وبالرغم من أن هذه الحركة لم ترق إلى منزلة المدرسة معلومة الملامح في الكتابة التاريخية، إلا أنها كانت البدايات الأولى للكتابة التاريخية الحديثة ذات الطابع السياسي القومي التي تبلورت في مؤلفات الكاتبان الفلورنسيات البارزان ميكافيللي وجويكارديني.(بارنز، 1984،ص 149،155،159)

لعب مركزان فكريان في أوروبا الدورين الرئيسيين في هذا المجال هما ايطاليا وفرنسا، في إيطاليا مهد الحركة الإنسانية كان التوجه الفكرى الطاغي إعادة الاعتبار إلى الحياة الدنيوية ونبذ فكرة أن الدنيا وادي دموع بين المهد واللحد. وفي هذا الإطارمن تمجيد العقل الإنساني وجدوا ضالتهم في العودة إلى الفكر الكلاسيكي الذي ينحو هذا المنحى.وربما اثر الإطار السياسى الذي عاشوا فيه وهو دول مدن فطغى عليهم حب الوطن. واتجه الدارسون لدراسة فكر التاريخ في هذا الإطار حيث يبرز منهم مكيافيلى (1469- 1530م) الذي عمل في خدمة آمراء فلورنسا، تجلت نظرته للتاريخ وتفسيره في كتاب " الأمير والأحاديث" حيث عزا الأعمال كالإنسانيين للإنسان، ولكنه خالفهم في نسبتها للإنسان في المجتمع أو للشخصية الجماعية في الوطن لا للإنسان الفرد. وفي هذا المجال هاجم تمجيد الكنيسة للرجال المتواضعين المنعزلين المشغرقين في التأمل لا الرجال العاملين الناشطين بفعالية، ولذلك فضل الجمهورية الرومانية الوثنية على وضع إيطاليا في ظل المسيحية.(بدر، 2001 ،ص 17)

حدث تطور جديد بعد ذلك بظهور المذهب العقلاني الذي ارتبط بحركة الاستكشافات الجغرافية وتوسع الأوروبيين خارج قارتهم، مما كان له أكبر الأثر على الفكر الاوروبي وانظمتها الأوروبية، وهو ما فتح آفاقاً جديدة أمام المؤرخ، وأتاحت له مزيداً من الفرص للابتكار والتجديد، فلم تعد الكتابة التاريخية مجرد سرد للمؤامرات والدسائس، وإنما أصبحت وصفاً شاملاً لعادات الشعوب وسلوكها، وهو ما ولد مدرسة جديدة تسعى للكتابة عن التأريخ الاجتماعي والثقافي، وبرزت فلسفات فرانسيس بيكون ورينيه ديكارت وجون لوك ذات الطبيعة الناقدة. ويستمر البحث التاريخى في أوروبا كجزء من الصراع السياسي والعسكري حتى إطلالة القرن الثامن عشر، حيث ترتفع أصوات عقلانية هادئة فتحاول أن تؤسس لفكر تاريخى تقوم عليه فلسفات ووجهات نظر قانونية وتربوية واجتماعية. (كوثرانى، 2012،ص

150) فلا شيئ غريب اذن في هذه الفلسفة قدر فكرة حكم التاريخ التي تعد في حد ذاتها فكرة فلسفية، ومن هذا المنطلق، لا تعد العقلانية فلسفة حديثة، ففكرة ديكارت عن التاريخ تقترب على الأقل ولو جزئياً من فكرة مكيافيللى، اكثر من اقترابها من فلسفة معاصريه مثل بوسويه، بل ومن فلاسفة القرنين التاليين. (صبحى، 1998، ص170)

لقد نوه كولنجوود إلى أهمية ديكارت، ومع ذلك عاب عليه تصور للماضي، واعتباره أن التاريخ في حقيقته ليس فرعاً من فروع المعرفة، ومحاولته السعي للوصل إلى فهم يمكن تطبيقه على فروع المعرفة جميعها، سواء الميتافيزيقية، أو الطبيعية، أو الرياضية دون تمييز.(العواودة، 2019،ص 184) وهذا ما أنكره كولنجوود على ديكارت متفقاً في ذلك مع كانت.

وأما جون لوك فعندما يصل اليه المرء، يستولي عليه الدهش ففي الواقع أن سيادته تبدو للوهلة الأولى بلامنازع ولا تعاني، أي تمرد.وفي سنة 1690 عرض في كتابه: " محاولة عن العقل البشري" اتجاها جديداً للفكر التاريخي، وقد بقيت هذه المحاولة، الى عهد "كانت" على أنها هى الكتاب المرشد للفلسفة.(هازار،2004،ص 58)كان معنى هذا أن عبارة (لوك) أصابت الحقيقة، وأن المعرفة التاريخية هى المعرفة الوحيدة، التي يمكن العقل الإنسانى أن يعرف نفسه بها، والذى يسمونه علم الطبيعة الإنسانية أو علم العقل الإنسانى، هو في حقيقته التاريخ.(كولنجوود،1968،ص 383) وتقول كولنجوود، إن الوعى الإنسانى- وفي هذه الحالة الوعى الإنسانى الشائع المسؤلية ووعيه التاريخى بأعماله التضامنية- هذا الوعى يقدم له مرشدا لأفكاره عن الطبيعة.(راوس، 1968،ص 109).

فيرى ماركس أن التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الإنسانى، وهذه القوانين حتمية، لأنها ناتجة عن حركة الإنسان نفسه، وأن الإنسان إذا أدرك هذه القوانين استطاع أن يقدر صورة مستقبل الجماعة الإنسانية.(مؤنس، 1984،ص 117) والماركسية- شأنها شأن سائر أنواع الفكر المتطور- تضمنا في مجابهة النسبية التاريخية أو المذهب النسبى التاريخى.وهذه هى المشكلة الكامنة في قلب الفكر التاريخى والتي سعى إلها أغلب مفكرى عصرنا الذائعى الصيت في هذا المضمار من

أمثال ديلثى وترولش وكروتشى. ولست أستطيع أن أسلم بصحة هذا الموضوع تماماً.(راوس، 1968،ص127)

والواقع أن نظرية التطور في العلوم وما أطلق عليه في إنجلترا، في اعتدال وفطنة، اسم " المنهاج التاريخى"(وما اتخذ في ألمانيا اسماً مشابهاً) إنما هما تطوران توأمان لحركة الفكر الجوهرية ذاتها التي ميزت شخصية " المناخ الذهنى" للقرن التاسع عشر.وقد رأى (بدى) ذلك جلياً.((إن نمو الدراسات الفكر التاريخية في القرن التاسع عشر قد حددها وميز شخصيتها المبدأ العام نفسه الذى وقع تحت التطورات النتعاصرة لدراسة الطبيعة وهى فكرة النظام التناسلى الوراثى. فالفكرة " التاريخية" للطبيعة- التي ولدت تاريخ النظام الشمسى، أى حكاية الكرة الأرضية وتسلسل التركيب العضوى الناشىء في الأرض والتي طورت العلوم الطبيعية تطويراً ثورياً[2]- هذه الفكرة "التاريخية" للطبيعة تنتمى إلى النسق الفكري الذى ينتمي إليه التصور الفكري للتاريخ بوصفه عملية عرضية أو تسلسلية دائمة. وتلك فكرة طورت البحث التاريخي تطويراً ثورياً وأكسبتها الصفة العلمية)) ثم يسطرد بشرح ذلك فيقول: ((وهذا يعنى، بالنسبة إلى التاريخ، أن حالة الجنس البشرى الحاضرة ليست – على وجه الدقة- إلا نتيجة لسلسلة عرضية (أو لمجموعة من السلاسل العرضية) من تبدلات دائمة التعاقب تتولد بمقتضاها- عرضاً- كل حالة من سابقتها. وهذا يعنى كذلك أن واجب المؤرخين أن يتعقبوا هذه العملية التولدية المتسلسلة وأن يوضحوا كل تبدل وأن يضعوا أيديهم، في آخر الأمر، على تطور الإنسانية الكامل)). وهو يذكر أن ((أهمية الجماهر السائدة كانت الافتراض الذى يسر تطبيق المبادئ التطويرية على الفكر التاريخ... إذ إنه بدون تحرك الجماهير إلى الأمام لايمكن تصور الاطراد والتناسق والقانون على أنها قابلة للتطبيق)).(راوس، 1968، ص110)

لذلك المنهج التاريخي هو الوسيلة المناسبة، ذلك أن المعلومات أيضاً لها من الوعى قدر لا يقل عما للتجربة منه، إنه ليس مجرد شيء عملي إنهما كي، يقدم إجابات مؤقتة عن أسئلة مؤقتة ولا هو مجرد شيء نفعى حتى ينبذ العقل. وقد ينسى ويعود مرة بعد أجيال. إنه لايقتاً يعاد صنعه وتعاد صياغته وفقاً لحاجاتنا على أن بعض تلك الحاجات عملي والبعض أدبى أخلاقي، كحاجة الإنسان في العالم

أجمع إلى استنباط الارتباط والملاءمة مما نفكر فيه وتحويل تجاربنا إلى نظام يسوده التفكير.)).(راوس، 1968،ص 138)

فيرى فيكو ان كل عصر البطولة اتبع بعصر اخر كلاسيكى تميز بسيطرة الفكر على الخيال، وتفوق النشر على الشعر، والمعايير الاخلاقية التي تقوم على السلم بدلا من الحرب، وفي عصر البربرية يظهر التأمل، او التفكير البربري حيث مازالت السيطرة للفكر، حسب قوله، ولكنه تأمل وتفكير من النوع الذي استفذ طاقته الابتكارية او الانشائية. فلم يعد الا نسيجا من المظاهر الجوفاء ذات الطابع المتكلف الفج.(حسين،2012،ص 82)

ومجمل القول أن فيكو قد أنجز شيئين، أولهما أنه أحسن الاستفادة من التقدم الذي طرأ على منهاج البحث التحليلي النقدي، الذى جاء ثمرة لجهود مؤرخي أواخر القرن السابع عشر، ثم تقدم بهذا الأسلوب التحليلي مرحلة أخرى، أثبت فيها كيف أن الفكر التاريخي يمكن أن يكون إنشائياً، إلى جانب النقد والتحليل، ثم فصل بينه وبين الاعتماد على المصادر المكتوبة، محتفظا له بطابعه الأصيل أو المستقبل الذى يستطيع عن طريق التحليل العلمي للمادة المكتوبة أن يكشف عن حقائق أتى عليها النسيان. وثانيهما تطويره للأسس الفلسفية المتضمنة في تصويره للأحداث التاريخية إلى الحد الذى يستطيع عنده أن يقوم بهجوم مضاد على الأسس العلمية والفلسفية لمدرسة ديكارت، والمطالبة بأساس أوسع مدى وأعمق لنظرية المعرفة، منتقداً ما اتسمت به العقيدة الفلسفية القائمة وقتئذ من ضيق وتفكير نظرى مجرد.(كولنجوود، 1968، ص141) ويعد فيكو أبرز الأمثلة لمدرسة الاستنارة في التاريخ، كما اقترح مبادىء جديدة لتكون أساساً للبحث التاريخي، وهو أول من حاول " نقل التاريخ من ميدان الحرب إلى قاعات الدرس".(مؤنس، 1974، ص76)

ومن بعدهم ظهرت فلسفات مونتسكو وفولتير وروسو، التي كانت إيذاناً بقيام الثورة الفرنسية، وكانت آراء العقلانيين تحاول تفسير هذه الاكتشافات العالمية والتحولات الكبرى في التاريخ بفكر فلسفي مستقيم وعقلاني للظواهر الطبيعية والاجتماعية.(بارنز، 1984،ص 195ـ210،197ـ214) وما يمكن ملاحظته أن الفضل في تقدم العلوم الطبيعية يرجع بالدرجة الأولى إلى فلاسفة وعلماء، من خلال انشغال الفلاسفة بالمنهج والعلماء بالموضوع.

حول المسار الذي يتعداه التقدم والمؤثرات فيه أعطى مونتيسكو (1689-1755) الأسباب الطبيعية من مناخ وأحوال جغرافية دوا مؤثرا، دون أن يوازن بين تأثيراتها المباشرة التي لابد منها وبين مختلف أنواع ردود الأفعال البشرية عليها. بينما أعطى أخرون قيمه كبرى للبيئة الإنسانية، فالتقدم العقلى وما يؤدي إليه من اختراعات كما هي الحال في طرق المواصلات يسهم في زيادة المعرفة، وينمو معها العقل الذي يؤمن بدورة بيئة سياسية واجتماعية فتسود العقلانية والحرية المجتمع، ويتعاون هذا كله لإحراز اختراعات اكثر فاكثر وتقدم أكبر فأكبر، مما يهمش أو يقلل من دور العوامل الطبيعية.(بدر، 2001،ص 21)

ان مونتسكيو هو الأول دون شك، قبل ماركس، الذي شرع يفكر بالتاريخ دون ايلائه أية غاية، أي دون اسقاط وعي الناس واقوالهم ضمن زمن التاريخ. ان هذا المأخذ اذاً يصبح دعماً لصالحه " لقد كان الأول في اقتراح مبدأ وضعي للتفسير الشامل للتاريخ" مبدأ غير " ستاتيكي" فحسب بمبدأ كليه ادراك تنوع قوانين ومؤسسات حكومة معينة، بل انه مبدأ " دينامي": قانون وحدة الطبيعة والمبدأ، هذا القانون الذي يسوغ التفكير أيضاً بمستقبل المؤسسات وتحولها في الفكر التاريخي. (ألتوسير،2010،ص 48) ويظهر الفكر التاريخي النقدى والعقلانى واضحاً كذلك في دراسة مونتسكو للقوانين واختلاف هذه الأخيرة في الأزمنة والأمكنة، فهو يرى أن ثمة خصائص وعوامل جغرافية ودينية وأخلاقية تتكون لتنشئ إطاراً واحداً من المبادئ والخصائص الضي يسمه (روحاً عاماً) لأمة أو عصر أو حضارة. (كوثرانى، 2012، ص151)

ان أرنست كاسيرر في عمله حول " فلسفة التنوير" يمجد مونتسكيو لأنه أسس بهذه الطريقة نظرية "متفهمة" حديثاً تماماً عن التاريخ، أي لأنه فكر التاريخ تحت مقولة الكلية، وعناصر هذه الكلية في وحدة نوعية، " متخليا بالضبط عن فكرة امكانية تغلب أحد العناصر على العناصر الأخرى" أي امكانية وجود ((محرك التاريخ)). لن يكون التاريخ عندها سوى كلية متحركة حيث يمكننا "فهم" وحدتها والامساك ب "معنى" الحركات الداخلية، دون ((تفسيره)) أبداً، أي دون ربط حركات التداخل بأي عنصر حاسم. وبالفعل فاءن هذه النظرة تبدو مطابقة حرفياً للعديد

من مقاطع مونسكيو الذي يعيدنا باستمرار من شكل الحكومة إلى مبدئها ومن مبدئها إلى شكلها.(ألتوسير،2010،ص 50)

وفي اطار هذه التطورات جاءت إسهامات "فولتير 1694- 1778" خلال القرن الثامن عشر، رغم أنه ليس مؤرخا، وإنما من هواة التاريخ باعتباره كتب مؤلفاته التاريخية على أنها من ألوان الفلسفة، وقد أعلن فولتير أن الفيلسوف وحده الذي يجب أن يكتب التاريخ، لأن التاريخ عنده هو " فلسفة تعليم بالتجربة"، وبدأ فولتير تطبيق نظريته حين هيأ نفسه للتاريخ عن طريق دراسته للفلسفة " لفحص الحياة بكليتها"، وعندما نشر كتابه سنة 1751 عن " عصر لويس الرابع عشر" الذي أبدى فيه براعة فائقة في تحليل الأحداث والأشخاص ومظاهرة، وجاء الكتاب احتجاجا على مفهوم التاريخ السائد بأنه " تكديس زمني للأسماء والتواريخ"تغرق الفكر ولا تضيئة.(الشلق،2015، ص120)

وأهم مؤلفاته فولتير، من حيث تطورها التاريخي، الذي وصفه بأنه " أول مؤلف تاريخي بالمعنى الحديث"، فقد تخلى فولتير فيه تماماً عن النظام الحولي، والتتابع الزمني للأحداث، ونظم كتابه على أساس ترتيب الموضوعات، وأبدى فيه براعة فائقة من تحليل الأحداث والأشخاص، وهي المدة الأولى التي يتناول فيها كتاب تاريخي حضارة أوروبية تناولاً شاملاً.(حسين، 1974، ص130)

ومن ثم نجد أن المفهوم الذي قصده فولتير من فلسفة التاريخ كان لايتجاوز عملية البحث التاريخي، ودراسة التاريخ بما يوسع من أفاقها الفكرية والنقدية للوصول إلى تاريخ يعكس طبيعة التقدم المطرد للعقل البشري، ويبتعد عن دائرة الأفكار الضيقة للمؤرخين الأوربيين التي تهتم بالحروب والتاريخ السياسي فحسب، دون تاريخ الحضارات. (النجار، 2011،ص 19)

ومن خلال أعمال فولتير تبدو فكر تاريخي أنها تقوم على التأمل العقلاني العالمي، حيث توظف الفكر التاريخي، كما يوظف النقد ورفض مظاهر اللاعقلانية، من أجل مستقبل أفضل للدولة والمجتمع المدني في كل مكان. الخلاصة، أن الدراسة التاريخية بقيت حتى ذلك الحين (القرن الثامن عشر) عناصر تستخدم لبناء هياكل فلسفية وفكرية وسياسية وتربوية مرتكزة على عالمية العقل البشري.

ولقد حسب فولتير – في قلق جعل عدة صفحات من إنتاجه التاريخي مؤثرة- أنه قد عين تطوراً قد انتهى إلى التقدم. حقاً إنه تقدم جد بطيء، وجد عسير، وهو مهدد بلا انقطاع. ومع ذلك فاءنه، أثناء بعض العصور الممتازة، كان يظهر في عالم النور.(هازار،2004،ص 205-206)

من السهل أن نفهم أن فكرة التاريخ التي صاغها فولتير، وكل من سار على نهجه، تريد أن تبعد فكرة العناية الإلهية وتبعد تأثير الرب في مجرى التاريخ بعدما أبعده نيوتن من الطبيعة، كما أنها تسعى إلى التأسيس لرؤية فلسفية تمجد العقل فقط وبالمقابل الحط من كل مالا يتوافق معه من المعايير والقيم. تكوين هردر[3] الديني جعله يرفض هذه الفكرة التي تلغي دور الرب في حياة البشر وفي التاريخ وفي الطبيعة، وبالخصوص أن الفرنسيين كان لهم موقف عدائي شديدة تجاه الدين، هذه العدائية انتقلت بشكل تلقائي إلى ازدراء واحتقار كل الثقافات والشعوب والمراحل الفكر التاريخية التي يعد الدين عاملا أساسيا في تكوين وعيها وفكرتها التاريخية.(كرام، 2023،ص 226)

أنه الفكر التاريخي الذي انبثق من فكر الموسوعين الفرنسيين (Encyclopdistes) الذي كان يهدف إلى نشر الثقافة الوطنية أو القومية بالتلازم مع نشر فكر الحريات وفكر التقدم، بأسلوب يمكن أن يصل إلى جميع القراء.(كوثراني، 2012،ص 249) ويعد مؤرخوا النصف الثاني في القرن الثامن عشر بداية الأنقلاب الفكرى في أوروبا أو ماعرف بالفكرة التاريخية، وبدأ هذا الانقلاب يؤثر في علماء التاريخ والاجتماع، فظهر مفكرون ومؤرخون اهتموا بالتعليل الفكرى خلال القرن الثامن عشر.

حين قامت الثورة الفرنسية كانت عاملاً مدعماً ضد المذهب العقلاني، إذ بدأت أحداثها بالنسبة للعنصر المحافظ من الناس وكأنها تهدم ما نادى به العقلانيون من إمكانية تغيير النظم الاجتماعية عن طريق الاستجابة لهدي العقل وتوجيهاته، إذ شهدت تلك المرحلة حركة فكرية استرجاعية للماضي كانت بمنزلة رد فعل على بشاعة الواقع وعنفه وعودة إلى الدين و (فضائل) القرون الوسطى، ولاسيما في جانب أخلاق الفروسية، وكان تأثير هذه الحركة في فكر التاريخية مهماً، إذ ساهمت في توسيع نشر وثائق القرون الوسطى والكنيسة، وردت، إلى هذه القرون مقامها

وبرأتها مما وصمها بها رجال النهضة والإصلاح الديني وعصر الاستنارة،ووجهت العلماء إلى دراسة سجلاتها التي طال إهمالهم لها وعدم احتفالهم بها. (هرنشو، 1982، ص79)

وهذه الحركة الجديدة التي قام بها التفكير الفرنسى، والتي تختلف عن الحركة الألمانية، لم تتجه صوب التاريخ بصورة مرسومة واضحة، ولكن الفحص الدقيق لخواصها الرئيسية، يثبت أن فكرة التاريخ كانت إحدى الأسس الفكرية التي سيطرت عليها. ولو بدا لنا أن نطابق بين فكرة التاريخ وفكرة الحياة الروحية أو العملية الروحية، لبدت الصلة الوثيقة بينهما واضحة للعيات، إذ الواقع المؤلم، هو أن فكرة العملية الروحية، هى الفكرة التي سارت على هديها الفكرة الفرنسية الحديثة. ونجد في ناحية واحدة من النواحى – بالرغم مما قد تنطوى عليه هذه الناحية من تناقض- أن هذه الحركة التي تزعمها التفكير الفرنسى،أحاطت بمشكلة التاريخ بصورة لامثيل لها في الحركة الألمانية التي اتجهت في نفس الطريق.(كولنجوود، 1968،ص 325)

وبدأت تخرج إلى النور أفكار كتاب التاريخ الرومانسيين، الذين اعتقدوا أن التطور الثقافي لأي أمة يتم تدريجياً لا شعورياً، كما أعطى الرومانسيون أهمية خاصة للتقاليد القومية والأفكار السائدة التي تشكل روح العصر والأمة، وبذلك دفعت المدرسة الرومانسية في كتابة التاريخ عجلة التاريخ القومي الذي هيمن على فكر التاريخية في القرن التاسع عشر.(بارنز، 1984،. ص 249-250، 264)

لقد مارست مدرسة علم الاجتماع الفرنسى تأثيراً في التحول الذي سيشهده علم التاريخ. هذا ولم تكن التحولات الفكرية التي تجرى في المشهد الثقافي الألمانى بعيدة من مجرى التأثير في الفكر التاريخي الذي كان اخذا في التكون مع تأسيس مجلة الحوليات في فرنسا. (كوثرانى،2012،ص 202201)

نشأت هذه المدرسة حول مجلة (الحوليات الاقتصادية والاجتماعية) في فرنسا سنة 1929 التي أسسها (مارك بلوك ولوسيت فيغر). وقد أصبح اسم هذة المجلة (الحوليات) عنوانا للمدرسة التاريخية التي ضمت من المؤرخين اللامعين كان أبرزهم بعد اسم المؤسسين (بلوك وفيغر) فرديناند برودل (1900- 1985).(باراكلو، 1984،ص 62-63): باراكلو، 1984، ص64) لقد جعل برودل من كتابه (

عالم البحر الابيض المتوسط في ايام فليب الثانى) الذى اصدرة عام 1949 نموذجاً تطبيقيا لكتابة الفكر التاريخى بحسب المنهجية التي تدعو إليها مدرسة الحوليات وهو كتاب شامل يدرس البحر الابيض المتوسط في عصر الصراع الضخم بين الاتراك العثمانين والاسبان والبلاد الاوروبية على سيادة ذلك البحر. وقد توصل (برودل) من دراسة مستفيضة لهذا الموضوع الى وجود شخصية تاريخية لهذا البحر. وقد تجلى ذلك في وحدة النظم الاقتصادية والسياسية التي سادت في معظم الدول التي قامت على شواطئة.(مؤنس، 1984، ص184)

في واقع الأمر، يكمن سر نجاح المدرسة التاريخية الفرنسية وتألقها على الصعيد العالمي في القدرة على المواكبة والاقتباس، والبراعة في إعادة الصياغة والتركيب. كما إضافة الى السجال وعمق النقاش، المدرسة الوضعانية ما كان لها أن تحتل واجهة المشهد الإسطوغرافي، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لالوحدة النقاش الفكري الذي دار في فرنسا بين التيارين الموجودين بالحقل الثقافي والسياسي. ويسجل المتتبع نفس الشيء بخصوص مدرسة الحوليات. فقد أبان المؤرخون، خلال القرن العشرين، عن قدرة كبيرة على الحوار مع العلوم الاجتماعية، ولاسيما علم الاجتماع، بل عن رغبة في الهيمنة عليها.(جيدة، 2018،ص 12)

ان هذا التوجة العملي الذى رسمته مدرسة الحوليات لدراسة التاريخ متجاوزة الطروحات الفلسفية والايديولوجية وثق الروابط والصلات بين التاريخ ومناهج العلوم الطبيعية والاجتماعية والانسانية، وأثار حماسا قويا بين المؤرخين لكتابة الفكر التاريخ الجديد الذى يحقق مقولة رائد مدرسة الحوليات مارك بلوك: ((أن التاريخ علم البشر، وليس علم الإنسان الفرد، وهو علم الناس، ليس الناس عموما ولكن الناس في المجتمع)).(باراكلو، 1984،ص 72)

ويشهد القرن التاسع عشر والعشرين ثورة ثقافية عميقة الأثر لم يفطن الناس إلى آثارها الكاملة الا في عصرنا هذا، وكانت هذه الثورة الثقافية تتصل بالتاريخ في الصميم، وكان التاريخ هو موضوعها في أغلب الأمر. ولنا أن نقول إن صيغتها فكر تاريخية.(راوس، 1968،ص 107) ويرى كولنجوود ان شبنكلر المثقل بالثقافة تجدة قد شوة هذه الثقافة ولتنسجم مع اغراض رسالته الرامية الى الحاق التاريخ بالعلوم الطبيعية، ويقول بقسوة متناهية، ان هذا الحد من الاسراف في

تزييف الحقائق لم يصل اليه حتى مفكر والقرن التاسع عشر الذين تتبعوا المنهاج الوضعي، بما بذلوه من جهود فاشلة استهدفت تحويل التاريخ الى علم من العلوم الطبيعية. (حسين، 2012،ص 110)

وحين كنت بصدد العرض التاريخي لفكرة التاريخ، حاولت أن أبيت أن التاريخ استطاع في اخر الأمر، أن يفلست من تبيعته للعلوم الطبيعية، ومع ذلك فاختفاء التاريخ الذى يخضع لفلسفة العلوم الطبيعية، لابد أن يتضمن نتيجة أخرى، هى أن النشاط الذى يبذله الإنسان مبتغيا من ورائه بناء صرح عالمه التاريخي الدائم التغير، نشاط يصدر عن الإرادة الحرة، فلا توجد هناك قوى غير هذا النشاط تتحكم هذا العالم، أو تغير من معالمه، أو تضطره لأن يسير في هذا الاتجاه أو ذاك، أو يرسم عالمه على أسسس معينة بدلا من أخرى.(كولنجوود، 1968، ص537)

واستنتج أن العلوم الطبيعية- بوصفها لوناً من ألوان الفكر – موجودة، وهى دائمة الوجود في سياق التاريخ، وأن كيانها يتوقف على الفكر التاريخى، ومن هنا آجازف باستنتاج أن أحداً لا يستطيع أن يفهم العلوم الطبيعية مالم يفهم التاريخ وأن أحداً لا يستطيع أن يجيب عن السؤال (ماهى الطبيعة؟) مالم يعرف ما هو التاريخ. وهذا هو السبب في أنى أجيب عن السؤال (إلى أين نذهب من هنا؟) بقولى ((نحن نذهب من فكرة الطبيعة إلى فكرة التاريخ)).

فمع بروز الدول القومية في أوربا أصبح للتاريخ أهمية كبرى، خاصة بعدما تحولت مصادر المعرفة التاريخية من الشفهية إلى تسجيلها على الورق ورفع شعار (لا تاريخ بغير وثائق)، وهو منهج تبناه الألمان على يد ليوبولد فون رانكه (1795 – 1886) وعززه الإنجليز على يد (لانجلواوسينيوبوس)، وتعتمد هذه المدرسة على التحليل والتعليل والنقد المقارن،(حجر، 2008،ص21: Goff، 1988،ص 324) كما نشأت معها مرحلتين طبيعيتين لدراسة التاريخ، الأولى نشأة العلوم المساعدة مثل العلوم السياسية، علم تقويم التاريخ، علم المخطوطات، علم النقوش، علم المعاجم، والثانية فهي تمضي لأبعد من الوقوف عند أصالة الوثيقة إلى شخصية كاتبها ومدى مصداقيته.(بارنز،1984، ص49)

ففي عام 1821 نشر رانكه كتاب: تاريخ الشعوب الرومانية والجرمانية (1494 – 1535)، وألحق به جزءاً تحت مسمى "نقد كتاب التاريخ في العصر الحديث"،

تناول فيه تحليل المصادر التي استقى منها معلوماته، ونقدها نقداً باطنياً مخالفاً للمحاولات التي سبقته في هذا المضمار، وأوضح أنه لا ينبغي على المؤرخ أن يقف عند حد استخدام المصادر المعاصرة للفترة التي يكتب عنها، وإنما عليه التعرف بقدر الإمكان على الظروف والميول الشخصية لصاحب هذا المصدر. كما قام رانكه باستحداث فكرة انشيمينار أو حلقات الدرس عام 1833 ليضمن استمرار تدريس التاريخ بمناهج علمية سياسية، وبذلك وضع رانكه أسس المدرسة العلمية التاريخية. واهتمامه بالكتابة عن الأحداث السياسية والشخصيات الكبرى مع إغفاله الكتابة عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وغيرهما، وتأييده لنظرية أن القوة الإلهية هي التي توجه التاريخ.(بارنز، 1984، ص 56-58)

في الأصيل، يعود الفضل للألمان في تطور المعرفة أو الفكر التاريخية، حدث ذلك مع المؤرخ الشهير، أبو التاريخ المنهجي، ليو بولد فون رانكه، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكان رانكه بدوره قد نهل منهجه من التراكم المعرفي الذي خلفه من سبقوه من العلماء، ثم إن تناول الوثائق تناولا نقديا، على النحو الذي نادت به مدرسة رانكه، موروث عن التقليد البروتستانتي في التعامل مع الماضي، كما سنرى عند الحديث عن دور الجامعات اللوثيرية في هذا الشأن.(جيدة، 2018،ص 8).لأن التاريخ معرفة تستند إلى الفكر، وليس من قبيل المعرفة التي تصل إلينا بطريقة مباشر، ففي استطاعته أن يفكر في هذه الأحداث، على أنها ظاهرة تتعلق بالماضى الذى حدثت فيه، وبالحاضر الذى يعيش فيه، ظاهرة تتعلق بفكرته التاريخية المباشرة الان، ولكن بمعرفته بصفة غير مباشرة، مادامت قد حدثت في الماضى.(كولنجوود، 1968،ص 285)

هذا ولم تكن التحولات الفكرية التي تجرى في المشهد الثقافي الألماني بعيدة من مجرى التأثير في الفكر التاريخي الذي كان اخذاً في التكون مع تأسيس حركة فكرية في فرنسا. وإدراك تفرد التحولات ومفهوم التطور والتتابع على مر الزمان ولكن من المفهوم أيضا أن لكل فترة تاريخية شخصية محددة بقيمها ومعاييرها الخاصة بها، وهذا من خصائص هذا الفكر التاريخي. وقد لعبت المدرسة التاريخية الألمانية دوراً رئيسياً في هذا التطور.(بوركى،2010،ص 110)

وينظر إلى الأفكار التاريخية عند هيجل على أنها الأب الروحى للأفكار المثالية في مدارس تفسير التاريخ، على الرغم من أنه كان أسبق على رانكه الألماني سابق الذكر بجيل كامل، فقد كان هيجل وتلاميذه من بعده يرون أن الفكر التاريخى أو الفكرة هما أساس كل ما هو موجود، وأن الأفكار والاراء هي التي تسير التاريخ، ويدلل هذا الفريق على أفكاره بأن النهضة الأوروبية قامت على أساس أفكار النابهين من أهل الغرب الأوروبي من نهايات القرن الثالث عشر الميلادى فصاعداً، وأن الثورة الفرنسية قامت بسبب أراء المفكرين الفرنسين في عصر التنوير.(مؤنس، 1984،ص85)

وقد أبدى "هيجل" تأكيده على أن كل التاريخ تاريخ فكر، وأجاب على سؤال مؤداه: هل الفكر في حالة الدراسات التاريخية ينبغي أن يكون مستخلصا من وقائع التاريخ؟ الأمر في الفلسفة خلاف ذلك، فالفلسفة تنتمي إلى مجال الأفكار التي تنتج نفسها بنفسها، وهي بهذا الشكل تسير في اتجاه مضاد للدراسات التاريخية، ولو سمح لها بدراسة التاريخ فستذهب إلى وقائعه وفي رأسها مجموعة من الأفكار المكونة سلفا، فتلوي أحداثه لتتفق معها. (هيجل، 1983 ،ص 77)

ومن ناحية أخرى ترى مدرسة هيجل أن كل عصر أو فتره أساسية في الفكر التاريخى وتاريخ الحضارة الاجتماعية يمثل وحدة مستقلة تمثل كياناً متجانساً من الملامع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلاقية والدينية وغيرها، وأن كل فترة من هذه الفترات تنمى فكرتها الرئيسة إلى الحد الأقصى ثم تولد أضدادها أو نقائضها، وبهذا جوهر التطور عند هيجل إنما هو نتيجة صراع المتناقضات، على أساس أن كل ظاهرة تحتوى يناقضاً داخلياً يدفعها إلى الأمام ويؤدى بها إلى آخر إلى تحطمها وتحولها إلى شيء آخر.(خليل، 1981،ص 23-24)

إن الفلسفة لا تستطيع أن تتدخل في التاريخ استناداً لنظرية (هيجل) التي تفرض تاريخاً فلسفياً على حقائق التاريخ العادى، لأن مثل هذه التفرقة لامعنى لها. الواقع أن التاريخ العادى، هو تاريخ فلسفي لأنه ينطوى على فلسفة في نفسه في صورة المحمولات للقضايا المنطقية التاريخية. نريد أن نقول إن التاريخ الفلسفي كلمة ترادف كلمة " التاريخ "، والمعرفة الفلسفية عنصر من العناصر التي تتكون منها المعرفة التاريخية في صورتها الموضوعية العامة، وتنصرف هذه المعرفة الفلسفية إلى

تفصيل مفاهيم المحمولات (predicate concepts) وتلك فكرة يعبر عنها كروتشه بتعريفه للفلسفة على أنها منهاج البحث التاريخي.(كولنجوود، 1968 ،ص 352-353)بات الفلسفة ضرورية للتاريخ كما هي ضرورية لأى علم أخر، فلا يمكننا أن نتحدث عن أسباب التدهور والانحلال والتقدم والانحطاط والتي هى وقائع تاريخية إلا داخل الفلسفة بمعرفة السبب الكلى أو العلة الأولى، وقد ذكر (هورس) في كتابه " قيمة التاريخ": " أن التاريخ لا يستطيع وحده ويكفاية من ذاته أن يغذي حياة داخلية وثقافة في الإنسان، ولا يستطيع أن يصبح العنصر المدير بالنسبة إليها ولا روحهما... فهذا الدور لايقدر على تمثيله غير الفكر المتحكم بالنظريات... ولنقل... غير الفلسفة".(غالى، 2016،ص 150)

ويقول لنا كروتش إن ((الفكر التاريخية " أى علم التاريخ" من الناحية العملية هى التوكيد بأن الحياة والحقيقة تاريخ وتاريخ لا غير. والنتيجة الحتمية لهذا التوكيد هى إنكار النظرية التي تقول بأن الحقيقة يمكن أن تنقسم إلى تاريخ سام وتاريخ وإلى دنيا أفكار وقيم ودنيا أدنى تعكسها)). وهو يقصد إلى أن الأحداث والأفكار كلها جزء من مد الفكر التاريخ وانصهاره. ((والنتيجة السريعة لهذا الجدل تكمن في إظهار أن الأفكار والقيم التي كانت تعد معايير ونماذج للتاريخ ليست أفكاراً ولاقيماً عالمية ولكنها وقائع معينة وتاريخية ارتفعت إلى مستويات نظائرها العالمية)).(راوس، 1968،ص 131)

تم إن كروتشى، الذى صرف جزءاً طيباً من حياته في التفلسف والذى ألف إلى الموضوع كتباً كبيرة، كثيرة يضع نفسه الأن في مصاف أولئك الذين لا يرون مكاناً لما وراء الطبيعة. وكثيراً ما ضعت ودللت نظرياً على النتيجة القائلة بأن الفلسفة لا تستخدم إلا ((منهجاً علمياً للفكرة التاريخية)) مما أثار سخط من يلقبون بالفلاسفة. وهو يسأل- على أساس الاعتقاد بأن الفلسفة إنما هى حسن إدراك- ((هل الانعكاسات الفلسفية يمكن تبريرها إلا بوصفها وسيلة أو منهاجاً ننال به تلك المعرفة الفعالة النافعة الفريدة؟)). والواقع أنه سبق أن قال لنا في باب عنوانه ((المعرفة التاريخية تعد معرفة كاملة)).((لا يكفي أن نقول بأن فكر التاريخ ما هو إلا رأى تاريخى بل ينبغى أن نضيف أن كل رأى إنما هو رأى تاريخى أو بكل بساطة، تاريخ... والرأى التاريخى ليس مجموعة منوعة من المعلومات ولكنه هو المعرفة أو

الفكر ذاتها بصورة تملاء تماماً وتستفذ تماماً ميدان الدراية دون ترك مكان لأى شيء أخر.(راوس، 1968،ص 132)

وهكذا فإن الاتجاه العقلانى والانحصار في عالم الظواهر والقول بالتطور والواحدية اللاشخصية وبناء النظم الفكرية، كل هذا هو مايشكل إلى حد كبير هيئة الفكر التاريخي في خلال القرن التاسع عشر الميلادي في الحضارة الاوربية.(بوشنسكى، 1992،ص 30)

إن الحكم التاريخي، من حيث هو كذلك، حكم جزئي، ولكن على الرغم من أنه يتناول الجزئي والفردي، الا أنه يحتوي كذلك على محمولات كلية، كما أن موضوعه الحق، أي موضوع الحكم التاريخي، إنما هو الكلى والعام أيضا، ومثال ذلك عند كروتشه (1866- 1952)، وهكذا يؤكد كروتشه على التوحيد التام بين الفلسفة والتاريخ، معتبرا أن التمييز بينهما، والذى يؤدي إلى أن الفلسفة هي التي تقوم بدراسة المنهج التاريخى، هذا التمييز ما هو إلا تمييز مصطنع من أجل أغراض التعليم وحسب. فالواقع أن كروتشة يرى أن كل فيلسوف هو في نفس الوقت مؤرخ، وأن كل مؤرخ هو نفس الوقت فيلسوف، لأن هناك تاريخا في فلسفة أي فيلسوف، هو حياة هذا الفيلسوف كلها.(بوشنسكى،1992،ص 117)

أن القرن العشرين كان قرن " القراءة الأيديولوجية" للتاريخ، في مجال الفكر التاريخي بعد انقطاع مع موروثها القديم من ناحية، ونتيجة التأثيرات الغربية من ناحية أخرى، ومن ثم حملت عيوب الاستعارة من الفكر الغربي على الفكر التاريخي في العالم في القرن العشرين. (الشلق، 2015،ص 158) وقد حاول توينبي (1889-1975) في كتابه "دراسة في التاريخ"[4] صدر مابين عامى 1934 و 1939م في ستة مجلدات، وهو عمل رائع من حيث غزارة المادة التاريخية التي استخدمها، ومن حيث ثراء الفكر فيه كذلك، حاول أن يعثر على القوانين العامة التي توجه تطور الحضارات وسقوطها. ويلاحظ أن توينبي يحل فكرة دورات الثقافة ودورات التاريخ محل الفكرة التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر الميلادى. وهى فكرة التقدم. وقد تاكدت أهمية فكرة الدورات، التي توجد في أساس فلسفة اشبنجلر، تاكدت بكتاب توينبي، بل وأخذ بها في المجال العلمي بفضل تعريف مدرسة علم الاجتماع، التي قادها بتريم سوروكين،بها، ولتذكر هنا كذلك فيلسوفا أخر من فكر التاريخ، وهو

الانجليـــزى كولنجـــوود (1891- 1943) وهـــو الآخـــر مـــن أرضـــار الفكـــر التاريخي.(بوشنسكى،1992،ص 171)الـذى يمثـل انتقـال التفكيـر التـاريخى مـن مرحلـة أسـلوب البحـث الوضـعى إلـى مرحلـة جديـدة أخـرى، أسـتطيع أن أسـميها المرحلـة المثاليـة، عـن طريـق النقـد الفلسـفي للأسـس الفكريـة التـي يقـوم عليهـا هـذا التفكير.(كولنجوود، 1968،ص 286

وقـد تعرضـت النظريـة للنقـد كغيرهـا، وارتكـزت هـذه الانتقـادات علـى فكـرة أن تـوينبي اعتبر الحضـارة وحـدة معقولـة للدراسـة الفكـر التاريخيـة، واعتبرهـا كيانـا كليـا لا مجـرد عـدة تكـتلات لعـدد مـن الظـواهر الاجتماعيـة والثقافيـة المختلفـة والمتجـاورة في الزمـان والمكـان، مـن غيـر أن يكـون بينهـا تـرابط سـببي موحـد، وأنـه لـو صـح هـذا الاقتـراض لاسـتلزم التغيـر في أحـد مقومـات الحضـارة تغيـراً في مجمـوع المقومـات الأخرى.(خليل، 1981،ص 89- 94)

وتكـدس النـاس في المـدن منـذ الثـورة الصـناعية بشـكل متزايـد ليبلـغ مـداه في القـرن العشـرين، وظهـر دورهـا بـارزا في الاحـداث، مـن أثـر على عمليـة التـاريخ[5] التي فوجئـت بـأمر لـم تتأهـب لـه لاحتكـار السياسـة وبعـدها الاقتصـاد والثقافـة لميدانـه، ومـع أن أصـحابها بـرروا القصـور بعـدم تـوافر الوقـائع المدونـة، إلا انهـم حـاولوا التعـويض وخاصـة في المؤلفـات التي تتنـاول الحيـاة اليوميـة. كـذلك الحـال في الفكـر التـاريخي حـول دورهم في التحولات التاريخية.(بدر، 2001،ص 31)

هكـذا ومـن خـلال هـذه اللمحـة الخاطفـة يتبـين لنـا مـدى حضـور التـاريخ في الفكـر الغربـي منـذ اليونـان مـع (هيـرودوت) مـرورا بـالفكر الوسـيط مـع (أوغسـطين) و(بوسـوية)، وكـذا تجلياتـه في العصـر الحـديث مـع (فـولتير) و (فيكـو) و (هيجـل) و(مـاركس) الـذين فلسـفوا التـاريخ، ولا يخلـو العصـر المعاصـر مـن الاهتمـام بالتـاريخ فهـذا تـوينبى وشـبنجلر يسـتقرئ كـل منهمـا تطـور الحضـارات وانهيارهـا مـن خـلال التـاريخ. وغيـرهم مـن الفلاسـفة والمفكـرين الـذين يـرون أن بقـاء الآمـم وتطورهـا مرهـون بمـدى وعيها بفكر التاريخي.

في النهايـة يمكـن القـول، لايمكـن لتقـدم المعرفـة أن تكـون حكـراً على حضـارة أو شـعب أو عـرق. قـد تـؤدي عوائـق تاريخيـة في مراحـل مـن التـاريخ دوراً عـازلاً او سـالباً أو مـؤخراً لتقـدم فكـرة مـن الأفكـار، أو معرفـة مـن المعـارف، أو فلسـفة مـن الفلسـفات في

حضارة من الحضارات. ولكن يبقى التواصل الحضاري قائماً وقادراً على ممارسة الاقتباس أو التطوير أو الإبداع في أي مجال المعرفي التي من دونها لا يتأسس علم للتاريخ.

الخاتمة:

بعد دراسة الفكر التاريخي وتطوره عند الاوروبيين، لابد لنا من وقفة نبين من خلالها اهم الاستنتاجات التي توصل اليها البحث، يمكن إيجازها بما يأتي:

- من خلال بحثي هذا استخلصت مدى اهتمام المؤرخين بالتاريخ وحثهم عليه وإيمانهم بقيمته وفضله ومعرفتهم بمكامن العبرة والموعظة منه، فهو ليس تسلية وترويحاً للخاطر بقدر ما هو عظة وعبره يتعلم منها الحاكم والعالم والطالب والناس جميعهم وهو ذاكرة الامة وسجلها الحافل بانتصاراتها وانتكاساتها.

- لقد ولد التاريخ في رحم الأسطورة، وتربى في حجرها حين كان الإنسان بحاجة إلى ترقيع النقص في ذاكرته. ومن يقرأ الإساطير الأولى يجد فيها كثيراً من التاريخ، ومن يقرأ الكتابات التاريخية الباكرة يجدها أجراً الأساطير. وفي تلك المرحلة كانت الشفاهية وسيلة نقل المعرفة التاريخية بكل ماتعنيه الشفاهية من إعادة صياغة مستمرة للخبر التاريخي بحيث يحمل طبقات فوق طبقات من التفسيرات عبر الأجيال.

- لقد أسهم المفكرين عصر التنوير بأفكار جديدة في الفكر التاريخية الاوروبية فقد جعلتهم نظرتهم المتحررة رواد النقد التاريخي في العصر الحديث فقد وضعوا كل شيء موضع النقد والفحص الأمر الذي خلص التاريخ من كثير من الأخطاء، وهم أول من وسع أفق الأوروبي في نظرته إلى الفكر التاريخي، وقد أصبحت نظرة المؤرخ أكثر تحرراً وأبعد عن التعصب الديني والقومي، وتوصلوا إلى إن التاريخ الحق هو تاريخ الفكر الذى يكشف عنه تقدم العقل البشري.

- ومع ذلك كان الفكر التاريخي في الفترة الاستنارة مدخلاً للتاريخ العلمي وكان فاتحة لثورة الدراسات التاريخية التي شهدها القرن التاسع عشر اذ تنوعت فروع التاريخ وأفاق المعرفة التاريخية كما اتسعت الدراسات التاريخية وتنوعت طرائق البحث التاريخي حتى سمى القرن التاسع عشر بعصر صناعة والفكر التاريخ.

- أن المرحلة تطور الفكر التاريخي والمعرفة التاريخية لدى أمم الأرض الأخرى مختلفة ومغايرة، ولكنها ليست بالضرورة مختلفة.

- أن المعرفة التاريخية لم تكن وقفاً على أمة، أو مجموعة من الأمم، دون سائر البشر، وأن الفكر التاريخي كان رفيقاً ملازماً للإنسان في كل مكان وفي كل زمان.

- وبذلك نرى، ان علم التاريخ في كل العصور وثيق الارتباط بالتطور العام للحركة الفكرية.

الهوامش:

(1)علاقات الفكر التاريخي والفكر العلمي، موضوع واسع، نلفت النظر أن "العلم" عندما يرى على نمط الرياضيات، أي كحقائق ثابتة أزلية، يؤدي إلى نظرة ارستقراطية للمجتمع وإلى نفي التاريخ إما عن طريق الدورة الدائمة وإما عن طريق ازدواجية عالم الحقائق وعالم الظل. وهذا مانراه عند أفلاطون الذي أثر على الفلاسفة العرب بصفة مطلقة، أما العلم على النمط التطوري الطبيعي، فاءنه يتزاوج مع الديمقراطية ومع التاريخ الخلاق. وكان هذا رأي الطبيعيين اليونانين وفي القرن 19، "العلم" الافلاطوني هو غير الذهنية العلمية، بل هو علم منزل مبني على الوحي وقريب من معرفة المتصوفة.(للمزيد انظر: العروي، 1998، 94)

(2)أن الأفكار الثورية في العلوم تطورت متأثرة بالتاريخ.

(3)الفيلسوف الألماني غوتفريد يوهان هردر 1744-1803 Johann Gottfried Herder

(4)له ملخص بالإنجليزية، ولهذا الموجز ترجمة بالعربية، وقد ترجم إلى العربية عددا أخر من كتب هذا المؤرخ. واكتمل كتاب " دراسة في التاريخ" بظهور المجلد العاشر منه في عام 1954م.

(5)ذلك أن العملية التاريخة، هى نفسها عملية تفكير، وهى عملية تبقى إلى الحد الذى تستطيع عنده العقول التي هى أجزاء هذه العملية-أن تدرك أنها عناصر هذه العملية بالفعل. والعقل الذى يجد في التاريخ معرفته بنفسه، لايجد في التفكير التاريخى ما يكشف له عن قواه الكامنة فيه حسب – قوى ماكان ليتبينها في نفسه عن طريق غير هذا الفكر التاريخى وإنما يجد فيه أيضاً مايبعث على إنضاج هذه القوى والخروج بها إلى حيز الواقع المادى.(للمزيد انظر: كولنجوود، 1968 ، 394)

المصادر والمراجع

الكتب باللغة العربية

(1) أونج : والتر ج. ،(1994) الشفاهية والكتابية، ترجمة: حسن البنا عز الدين، مراجعة: محمد عصفور (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، العدد: 182.

(2) ألتوسير:لوي،(2010) مونتسكيو " السياسة والتاريخ"، ت: نادر ذكرى، ط2، الشوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

(3)باراكلو:جفرى،(1984)،الاتجاهات العامة في الابحاث التاريخية،ت:د.صالح احمد العلى، بيروت

(4)بوركى: بيتر،(2010) نظرات جديدة على الكتابة التاريخية،ترجمة وتقديم: قاسم عبدة قاسم،ط1، المركزى القومى للترجمة.

(5)بوبر: كارل ،(1959) عقم المذهب التاريخى (دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية)، ت: عبدالحميد صبره، دار المعارف.

(6)جيدة :محمد، (2018)المدارس التاريخية (برلين – السوربون – استراسبورغ) من المنهج إلى التناهج، دار الأمان، الرباط.

(7)حسين: د.محسن محمد، (2012)،طبيعة المعرفة التاريخية وفلسفة التاريخ، مطبعة موكريانى، اربيل.

(8) خليل: عمادالدين،(1981)، التفسير الإسلامى للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت.

(9)بن خلدون: أبو زيد عبدالرحمن بن محمد ،(د.ت)،مقدمة ابن خلدون،دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(10)الخولي: يمنى طريف ،(2003)، فلسفة كارل بوبر (منهج العلم – منطق العلم)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(11)الدوري: عبدالعزيز،(1960)، بحث في نشأة علم التاريخ عن العرب، بيروت، المطبعة الكاثوليكية.

(12) راوس: أ.ل.،(1968)، التاريخ أثره وفائدته، ت: مجدالدين حفنى ناصف، مراجعة: د،محمد أحمد أنيس، مؤسسة سجل العرب، القاهرة.

(13) زريق: قسطنطين ،(1959، ط 2 ،1963)، نحن والتاريخ: مطالب وتساؤلات في صناعة التأريخ وصنع التاريخ، ط1، دار العلم للملايين، بيروت.

(14)روزنتال:فرانز،(1963)،علم التاريخ عند المسليمن،ت: صالح احمد العلي،مراجعة: توفيق حسين، بغداد،مكتبة المثنى.

(15)الشلق: أحمد زكريا،(2015)، ما التاريخ .. وكيف نفسره؟ ،ط1، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة.

(16)الشيخ : رأفت،(2000)، تفسير مسار التاريخ (نظريات في فلسفة التاريخ)، عين الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.

(17)- صبحى :د.كاميليا (ترجمة)،(1998)، نماذج من الفكر الفرنسى المعاصر، تقديم: د.وائل غالى، دار الثقافة للنثر والتوزيع، القاهرة.

(18) طحطح :خالد فؤاد،(2009)، في فلسفة التاريخ، الدار العربية للعلوم، ط1، بيروت.

(19) العروي : عبدالله،(1998)، العرب والفكر التاريخي، ط4، المركز الثقافي العربي، بيروت.

(20)العويرى : د.محمود محمد،(2001)، منهج البحث في التاريخ، المكتب المصرى لتوزيع المطبوعات.

(21)قاسم: د.قاسم عبده،(2000)، تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.

(22) الفياض : د.عبدالله ،(1972)، التاريخ (فكرة ومنهجاً)، مطبعة اسعد، بغداد.

(23)كولنجوود: ر.ج.،(1968)، فكرة التاريخ، ت: محمد بكير خليل،راجعة: محمد عبدالواحد خلاف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

(24) كوثرانى: وجيه،(2012)، تاريخ التأريخ (اتجاهات – مدارس – مناهج)، إعداد : المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات،،ط1، بيروت.

(25) مؤنس: حسين،(1974)، التاريخ والمؤرخون، مجلة عالم الفكر، المجلد 20، الكويت.

(26)مؤنس :حسين،(1984)، التاريخ والمؤرخون: دراسة في علم التاريخ، ماهيته وموضوعاته ومذاهبه عند أهل العرب وإعلام كل مدرسة وبحث في فلسفة التاريخ ومدخل إلى فقه التاريخ، القاهرة، دار المعارف.

(27) مهران : د.محمد بيومى ،(1992)، التاريخ والتاريخ، دار المعرفة الجامعية.

(28) إلمربارنز: هاري،(1984)، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة: محمد عبد الرحمن برج، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ج 1، القاهرة.

(29)الناصرى : د. سيد احمد على،(1982)، فن كتابة التاريخ وطرق البحث فيه، دار النهضة العربية، قاهرة.

(30)النجار:د.جميل موسى،(2011)، فلسفة التاريخ، ط1، مكتبة مدبولى ،القاهرة .

(31)النبراوى :د. فتحية عبد الفتاح،(1996)، علم التاريخ ودراسة في مناهج البحث، دار الافاق العربية، الطبعة الثانية.

(32)هرنشو: ج. ،(1982)، علم التاريخ، تعريب وتعليق: عبدالحميد العبادى، دار الحداثة، بيروت.

(33)هيجل : (1983)،محاضرات في فلسفة التاريخ، ج1، العقل في التاريخ، ت: إمام عبدالفتاح، ط3، دار التنوير، بيروت.

(34)هازار: ثول،(2004)، الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر من منتسكيو الى ليسنج 1-2، ت: د.محمد غلاب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق.

(35)الوردي: د.على،(1995)، وعاظ السلاطين،ط2، دار كوفان- لندن.

(36)يزبك : د. قاسم ،(1990)، التاريخ ومنهج البحث التاريخى، دار الفكر اللبنانى،(بيروت).

الكتب باللغة الانجليزية

37-Jacques Le Goff، Histoire et memoire (Paris: Gallimard،1988.

38-Shotwell،J.T.، History، Encyc;opaedia Britannica،II

البحوث باللغة العربية

(39)بدر:أحمد محمود ،(2001) تفسير التاريخ من الفترة الكلاسيكية إلى الفترة المعاصرة، عالم الفكر، العدد 4، المجلد 29.

(40) بوشنسكي: إ.م.، (1992)الفلسفة المعاصرة في أوروبا، عالم المعرفة، 165، ت: د.عزت قرني، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب، الكويت.

(41) حسين: محمد عواد،(1974)، صناعة التاريخ، مجلة عالم الفكر، الكويت.

(42) حجر: جمال محمود ،(2008) المشافهة الإلكترونية وأزمة المنهج في كتابة التاريخ المعاصر، في مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، عدد خاص، عن أزمة المنهج في الدراسات الإنسانية، بحوث المؤتمر السنوي الأول للنقد الأدبي، 26 – 27 نوفمبر 2005

(43) صديق : حسن حسين ،(2012)، نقد بوبر للمنهج التاريخي وتطبيقاتها من وجهة نظر فلسفة العلوم (دراسة تحليلية نقدية)، مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد 7، العدد 3.

(44) العواودة:د.رائد عبدالجليل محمد،،(2009) المنهج الفلسفي عند الفيلسوف الإنجليزى روبين جورج كولنجوود، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، السنة الثامنة والعشرين، العدد الثامن والعشرون.

(45) غالى: حساين دواجى،(2016)، من التاريخ إلى فلسفة التاريخ قراءة في تطور الفكر التاريخي في الفلسفة الغربية، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، Volume 8،Numero 1 .

(46) كرام: د.ياسين،(2023)، من فلسفة التاريخ إلى فلسفة الثقافة: بحث في التأسيس الفلسفي للتعددية الثقافة عند هردر، مجلة الأداب والعلوم الاجتماعية، الجزائر، المجلد 20، العدد1.

(47) نور :د.هيام مرزة ،(2016)، مراحل تطور الفكر التاريخي عند المسلمين، مجلة كلية التربية الأساسية، المجلد 22، العدد 96.

مجلة إكليل للدراسات الانسانية
التصنيف الورقي: العدد 19 /ايلول/2024
IASJ–Iraqi Academic Scientific Journals المجلد(5)- العدد(3)-الجزء(1)

Historical Thought and its Evolution Among Europeans

Assist Prof Dr. Dara Tawfeeq Kaka Amin

College Humanities- Raparin University

daratofiyq@uor.edu.krd

Keywords: History. Thought . Europeans

Summary:

The history of human knowledge is a chronicle of humanity's relentless pursuit to comprehend and interpret their experiences arising from their interactions with nature and one another، ultimately aiming to enhance their lives. Knowledge emerges as a cumulative product of contributions from all human civilizations، as no single civilization can claim exclusive ownership of knowledge achievements. Therefore، historical knowledge has never been the sole domain of a specific nation or group of nations; rather، historical thought has accompanied humanity throughout its existence in every place and every era.

Delving into this subject holds immense significance as it allows researchers to trace the evolution of human historical thought and its methodological approaches across various eras. Additionally، it enables the extraction of wisdom and lessons from the past، while emphasizing the purposeful utilization of history.

This comprehensive and methodical research endeavor explores the origins and developmental stages of historical thought، its role in Europe's intellectual، social، and political advancement، and its intricate connections with sociology، philosophical realism، ethical relativism، and artistic and literary heroism.

The study is structured into an introduction، four sections، and a conclusion. The first section delves into the concept of history، while the second examines the utility and objectives of history. The third section explores whether history is a science or an art form، and the final chapter delves into the evolution of historical thought in Europe. The study culminates in the presentation of its findings، drawing upon Arabic and English books.